

خليص في التاريخ المنسي (10) محمد علي الشيخ



قراءة في الذاكرة

لعل مزارع (الدخيل) هي الأولى في قائمة المزارع الإستثمارية في خليص ؛ ثم لحقت بها أخرى جمعت بين الإستثمار والسياحة - سنذكرها في مواضعها من السياق .

نرغب في تأطير هذه المرحلة للتقليل من ادعاءات الأسبقية ، وتوظيف الفواصل الزمنية في غواية التاريخ .

نعلم جيداً : أن صادرات خليص من المحاصيل الزراعية كانت ، مناط استشهاد المؤرخين والرحالة - عرب وأجانب - الذين كتبوا عن أسواق جده ؛ لكن هذا الأمر لم يكن حكراً على خليص ؛ بل نازعته أمكنة أخرى كواحي فاطمة على سبيل المثال للحصر . وهي حالة معقولة لا تحتاج إجهاد العقل في التفسير ؛ فما ذلك إلا لغزارة الماء ، وبكورية الأرض ، وتوفر اليد العاملة ، وضيق المناشط الأخرى إلا ماكان له صلة بالزراعة ...

نرغب في تحديد تاريخ النهضة الزراعية ما بين تأسيس مزارع الدخيل ، حتى طوفان ١٣٩٥ هجرية - ١٩٧٥ ميلادي : الذي جرف الأخضر واليابس ؛ بما في ذلك فواصل الملكيات ، وقنوات سقيها .

وكان بمثابة النهاية المأساوية ، والتاريخ (الدرامي) لنهضة زراعية وسياحية خاضت حروباً شرسة ضد شح الماء ، وتبعات مضخات (الإرتواز) على المياه الجوفية ، ومشروع العين العزيزية ، وانتهاء بسد المرواني .

ونبني رغبتنا - في هذا التحديد بالذات - على معطيات كثيرة منها : تحول الزراعة من مزاولة مهنية بوسائل قديمة في الحرث والسقيا إلى مشاريع تعتمد على الميكنة والخبرة الزراعية ؛ مما تمخض عن إنشاء مكتب زراعي ، وإغراء رجال الأعمال بالإستثمار المزدوج = مزرعة واستراحة .

ونذكر من هذه الاستثمارات معلق منها بالذاكرة : " الدخيل - الجفالي - عمر باثابت - الزهراني - الزاهد - عبدالديدع - باليد - بادكوك - مزارع بخش " ولم تكن العلاقة بين هؤلاء المستثمرين والأهالي متينة وبيضاء رغم اعترافهم بعوائد هجرة المال على نشاط السوق ، وعلى تأسيس حالة من التمدن ، وصناعة ظاهرة إعلامية للمنطقة .

ولعل هذا النفور يعود على قدرتهم على إصلاح الأراضي البور المهملة ، وعلى التنافسية غير المتكافئة على استحداث مزارع جديدة كالفواكه - على سبيل المثال . هذا بالإضافة إلى ريبة المجتمعات التقليدية من المجاهيل الطارئة على النسق الثقافي المحلي .

من أبرز هذه المشروعات اللصيقة بذهني : مزرعة الدخيل ؛ ربما لعلاقة السيد صادق بـ (خالي الشيخ حسن ، وتكرار وفادته وأبنائه = عبدالقادر وعبدالعزيز لمجلس الشيخ .

أما مزرعة السيد عمر باثابت ؛ فقد التقيت ابنته (الدكتورة أبرار) في بوسطن بأمريكا أثناء مرافقتي لابنتي (الدكتور رزان) وهي تروي عن أبيها : أن جدها كان يأخذها معه إلى خليص ، وأنه يعرف الشيخ حسن ، ورافقه لزيارته بمنزله .

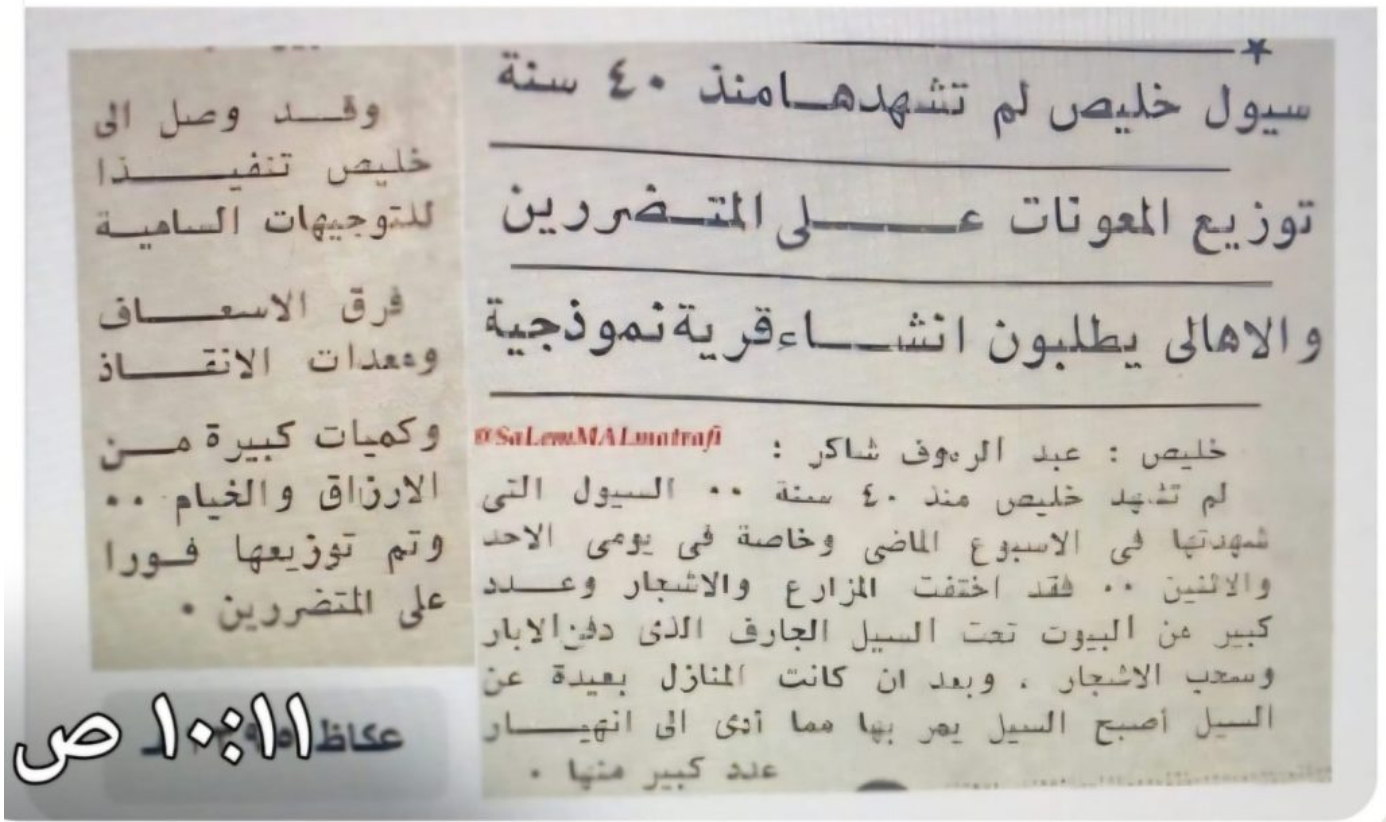
والثالثة هي مزرعة واستراحة الزهراني ؛ فقد حظيت بزيارتها مع بعض الأصدقاء والنافذين ، ولم تدهشني طرائق حياة النخبة ؛ فهي أقرب للبروتوكول التقليدي منها للعصرنة . وبعض الصور المسبقة مرهونة بفناعات صاحبها ، وليس بالضرورة حدوثها ، حتى لو توفرت إمكانياته .

وقد كفانا الكاتب والصحفي والإعلامي الأستاذ أحمد عناية الله - رئيس تحرير صحيفة غراس مشقة بعض البحث والتحري ، عندما قاده انتماؤه إلى جولة بصحة الأستاذ عطاء الله غنام في مصادر الماء بخليص ، ودون مشاهداته مع بعض استحضار المروي والمكتوب بنفس الصحيفة (غراس) تحت عنوان " خليص واسترجاع الماضي " ويمكن للقارئ أن يعود إليه ليكيفنا - هو أيضاً - بعض التفصيل .

مانود أن نشير إليه : مذكره الأستاذ أحمد نقلنا عن صحيفة أم القرى عام ١٣٨٠ هجرية أن " خليص كانت تنتج مايقارب مليون كرتون برتقال في العام .

ولم أنسى أن صحيفة المدينة نشرت مقالا في تلك الفترة - يوم كانت خليص تستقطب الفعاليات الزراعية والسياحية والتسويقية على مسرح اجتماعي انفتح على قبول الآخر ، واستقبال بشائر النهضة . كان عنوان هذا المقال : خليص " مصر الصغيرة " ولك أن تغري مخيلتك للتحليل في مشاهد ورؤى هذه الحقول الخضراء الخليجية التي تشتبك مع النيل ، وتوظف عقلك لاستيعاب هذه الدرجة من مؤشر عجلة التطور !!! وقد كنت شاهدا على هذا العصر .

في آخر شهر ربيع الأول ١٣٩٥ هـ هطلت
أمطار غزيرة جدًا وجرت سيول جارفة على
بلدة خليص لم تشهدها منذ أربعين سنة
وأُتلفت المزارع والأشجار وتضررت أعداد ...



وسأروي نصا من هذه الملحمة- قبل كارثة السيل : كانت مزارع خالي (الشيخ حسن) قبل نصف قرن جنة تموج بالبساتين = فواكه وخضروات على اختلاف أنواعها ومذاقاتها ؛ حتى أن نتاجها التحصيلي يحتاج لثلاث سيارات (لوري) كما هو اسمها الشائع آنذاك ؛ ربما الآن (شاحنه) وتحضرني أسماء سائقي هذا المركبات وهم : عائد المغربي - رجاء الصعيدي - مبارك الصعيدي رحمهم الله جميعا ، ورحم الشيخ حسن . ولا يسعك إلا أن تقول : سبحان الله " كل هؤلاء مروا هنا !!!

وأخيراً : علينا أن نفقه : أن هذا التحول في النشاط الإنساني سنة كونية . فقد بدأ الإنسان في أوله بالصيد ، ثم الرعي ، ثم الزراعة بعد أن استقر على ضفاف الأودية ، وتحت مساقط المياه . ورغم أن معظم الأنشطة التالية انسلت من الزراعة كالتجارة والصناعة ، مما وسع إمكانية الشواغر المهنية ؛ إلا أن اهتمامات الإنسان تمحورت حول التعليم ومركزية القطاع العام الذي أمن له الوظيفة ؛ مما ياعد بين الشرائح الاجتماعية ، وخلق طبقة وسطى أربكت دوائر الخدمة المدنية ، وطبقة نخبوية استأثرت بالمناصب والثروة ، وطبقة (على الله) الذين نازعهم الوافدون فتات المستهلك ...

محمد علي الشيخ